

حفريات الخطاب في الفكر المعاصر؛ الزواوي بغورة قارئاً ميشيل فوكو Archaeology of Discourse in Contemporary Thought: Zouaoui Beghoura's Reading of Michel Foucault

ط. د. عبد العزيز منسي^{1*}، أ. د. جويني عسال²

¹ مخبر الدراسات الإنسانية والأدبية (E0280900)

جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي تبسة (الجزائر)

abdelaziz.menci@univ-tebessa.dz

² جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي تبسة (الجزائر)

assel.jouini@univ-tebessa.dz

تاريخ الاستلام: 2023/07/30 تاريخ القبول: 2024/02/26 تاريخ النشر: 2024/03/04

Abstract:

The concept of discourse has undergone significant theoretical developments and practical applications, garnering increased attention, particularly due to Michel Foucault's groundbreaking contributions. Foucault's insights have endowed discourse with diverse semantic nuances and expanded its dimensions, granting it epistemological legitimacy in shaping human knowledge and delineating its boundaries. In light of this, Zouaoui Beghoura undertakes a meticulous examination of discourse within Foucault's framework, aiming to comprehensively understand its multifaceted nature and its implications for knowledge and language. This research delves into Beghoura's engagement with Foucault's concept of discourse, probing the intricacies and complexities of his cognitive contributions. By exploring beyond conventional interpretations, this study uncovers the underlying cognitive efficacy inherent in discourse, which informs Foucault's critical dialogues and shapes his intellectual legacy.

Keywords: Archaeology, discourse, Foucault, Beghoura concept.

ملخص البحث:

ارتبط مفهوم الخطاب بالكثير من المنجزات النظرية والممارسات التطبيقية، واستحوذ على المزيد من الاهتمام بفضل الطروحات الجديدة التي قدمها ميشيل فوكو، والتي شحنته بحمولات دلالية مغايرة، وأعطته أبعاداً جديدة أكسبته الشرعية الإستيمولوجية في تشييد المعرفة الإنسانية وترسيم حدودها، ومزيداً من القابلية للاستغلال العلمي، ولذلك انخرط الزواوي بغورة في معاينة هذا المفهوم عند ميشيل فوكو والبحث عن جغرافيا المفهوم بغية إدراكه بشكل أعمق يتسم بالشمولية من كل الجوانب المعرفية واللغوية.

وتأتي هذه المكاشفة البحثية لثُسائل وعي بغورة بهذا المفهوم عند فوكو، وتبحث في المتواري والمخبوء في منجزاته المعرفية، من خلال طرح إشكاليات تتجاوز الجاهز وترسخ إمكانية مراجعة مفهوم الخطاب وعوامل هيمنته كفاعلية معرفية غير بريئة بنى عليها بغورة منطلقاته التي أطرت وعيه وارتكز عليها في محاوراته النقدية.

الكلمات المفتاحية: حفريات، خطاب، فوكو، بغورة، مفهوم.

مقدمة

لا يمكن أن ينهض الفكر الإنساني وينتج معرفة جديدة وخصبة، إلا من خلال تبني ثقافة تتجاوز بتقويض المنجز الحاضر واجترار وتشبيد أبعاد ومنظومات معرفية جديدة، ولا شك في أن أي تواصل أو تلاقح ثقافي لا يتحقق إلا من خلال الوعي بالمفاهيم والمصطلحات التي تسهم في إذكاء النشاط الفكري وتكوين العقل، وتجاوز إشكاليات التعثر والتأزم، من أجل تأطير الوعي ورسم الحدود عن طريق بناء وتشكيل المفاهيم. ويتقدم مصطلح "الخطاب" إلى واجهة التفكير النقدي العربي المعاصر حاملا مفاهيم خصبة ومتشعبة، متجذرة عميقا في الثقافتين العربية والغربية جعلته متميزا بكثافة معانيه وتنوع دلالاته، وهذه الأمور مازالت تسترعي انتباه الباحثين وتستقطب اهتمام المتخصصين.

ومن هذا المنطلق يحظى "مفهوم الخطاب" بمركزية كبيرة في المنجزات البحثية، غير أنه ما يزال عصيا على الإحاطة به بشكل كامل، فكلما حاول باحث فك كنهه والقبض على مفهومه وجد نفسه بعيدا عن الاقتراب منه وتعسر عليه فك شيفراته؛ لأنه لم يبق محافظا على محمولاته الدلالية، فقد ارتحل وتجوّل حتى فرض نفسه في كل المجالات وأثبت جدارته في حقول معرفية متقاطعة، وقد استمد مفهوم الخطاب قيمته النظرية، واستقى فاعليته الإجرائية من منطلق كونه راهنا في مجالي النقد والفلسفة ونقطة وصل بين الطروحات النظرية والإجراءات التطبيقية حتى اكتسح العلوم الإنسانية، وتم شحنه بدلالات جديدة وحظي باستهلاك معرفي خاصة بعد التحول الكبير الذي عرفه هذا المفهوم من خلال ما قدمه ميشيل فوكو من طروحات وفهوم متعددة جعلته يتخذ أبعادا جديدة.

وبناء على ما تقدم، حاول الزواوي بغورة الإحاطة بهذه الفهوم في دراسة جريئة تناولت "الخطاب" عند فوكو، حاول من خلالها إظهار شموليته بشكل غير متجزئ؛ حيث اتكأ على مصطلح الخطاب وجعله مطية للحفر في الجهاز المفاهيمي والترسانة المصطلحية بغية فهم واستكناه الطروحات الفوكوية، ومن هنا جاءت هذه الورقة البحثية لتتساءل عن مدى وعي بغورة بالفهم الفوكوي للخطاب، ضمن مقارنة أركيولوجية مطعمة بالتأويل، تبحث في كيفية محاورته وتعاطيه مع المفاهيم الفوكوية، وتختبر جدوى المسار المنهجي الذي التزم به في قراءته لفوكو، والتنقيب عن مدى تأثره بفوكو وتمثله لطروحاته الفكرية وترسانته المنهجية، وكشف تعالقه بالمرجعيات التي استقى منها منظومته المعرفية

1- حفریات الخطاب عند فوكو: المنطلقات والمفاهيم الكبرى:

يعد التطرق لمفهوم "الخطاب" عند ميشيل فوكو رحلة عميقة الأغوار في الفكر الفلسفي الأوروبي الحديث والمعاصر، ما يستدعي التطرق لهذا المفهوم ضمن السياق الذي احتضن طروحات فوكو، والحديث هنا عن الفكر الغربي.

1-1- مفهوم الخطاب في الفكر الغربي؛ مقارنة في المنظورين اللغوي والفلسفي:

يرجع مصطلح الخطاب في الفكر الغربي إلى اللفظ اللاتيني (Discourses) الذي يعني "الركض هنا وهناك"، فهو ليس متصلا بالمعنى الاصطلاحي المعروف⁽¹⁾، لكنه قد يحمل دلالة "التدافع الذي يقترن بالتلفظ العفوي وإرسال الكلام، والمحادثة والارتجال"⁽²⁾، وإن هذا التحول والانتقال من مكان لآخر قد ينطبق على الأفكار أيضا، وهذا ما ذهب إليه الزواوي بغورة بأنه "يحمل معنى تبادل الأفكار أو الجدل"⁽³⁾، وإذا كان الخطاب في الثقافة

العربية يرتبط بالدين وعلم الأصول؛ فإنه في التراث الغربي يرتبط بالفلسفة، وإذا كان في الثقافة العربية قد كاد ينقطع عن الموروث؛ ففي الفكر الغربي مازال متصلاً بالموروث الثقافي الغربي، وتجب الإشارة هنا إلى أن الخطاب - منذ السفسطائيين وسقراط- "انحصر في حدود المعنى الذي يظهره الكلام، وأصبحت مهمته منحصرة في ما هو ظني ونسبي ومتغير؛ لأن طبيعة الخطاب عقلية"⁽⁴⁾، وهذا ما نجده أيضاً عند أفلاطون (Plato)؛ إذ إن الخطاب عنده يتماثل مع العقل (لوغوس).

وإن أول القضايا التي تطالعنا وتعوق تحديد مفهوم الخطاب بعد هذا التداخل بين العلوم وخاصة مع ظهور تيار البنيوية؛ هي قضية اشتباهه بما يتاخمه من مفاهيم، خاصة مفهوم النص، فهما مفهومان متقاربان جداً، لدرجة أن الكثير من الباحثين استعملهما كمترادفين، بسبب التباسهما، ويرد المصطلحان في الموسوعة اللغوية العالمية وقاموس النقد الأدبي بدلالة واحدة.

لكن يبقى الخطاب عرضة لعدة معاني أخرى، فنجد بعض اللسانيين يفرقون بينهما من منطلق الطبيعة/الشكل "فالنص مكتوب، والخطاب منطوق"⁽⁵⁾، ويرى جون ميشيل آدم (Jean-Michel Adam) أن الخطاب هو "كلام يُنجز في ظرفية تعامل اجتماعية خطابية، والنص كلام من غير تركيز على الوضعية التواصلية"⁽⁶⁾، وعليه؛ فالخطاب يتطلب وجود مرسل ومرسل إليه، ويتطلب النص وجود آليات التماسك اللغوية التي تساعد على تحقيق الانسجام.

أما أصحاب المدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب فيرون "أن النظر في النص بوصفه بناءً لغوياً يجعل منه ملفوظاً، أما البحث عن ظروف إنتاجه وشروطه يجعل منه خطاباً"⁽⁷⁾؛ فالخطاب عندهم مفهوم أوسع من النص؛ إذ يشمل السياق الاجتماعي المرتبط بعملية إنتاج الخطاب والشروط التي يكتسبها لتعطيه هذه السمات المختلفة عن السمة الملفوظية للنص، ويفرق بينهما ميشيل مكارثي (Michael McCarthy) بقوله: "إن هذين المصطلحين يمكن استخدامهما كمترادفين، ولكن هناك فرق بين النصوص كنتاج للاستخدام وبين الخطاب كعملية تفاعل وإنتاج للمعنى"⁽⁸⁾، فمكارثي لا ينفي الترادف، بل ويجيزه من منطلق التكوين، فكلاهما منتج لغوي، ولكنه يرى أن الفرق يكمن في كون الخطاب عملية تفاعل لإنتاج المعنى؛ أي إن الخطاب عنده مرتبط بظروف إنتاجه وأن التواصل فيه يتموقع في الأعلى، أما النص فهو بنية لغوية مجردة.

والخطاب في اللسانيات مفهوم حديث النشأة، ارتبط ظهوره بالجهود التي درست الجملة وتجاوزها الخطاب على يد زليج هاريس (Zellig Sabbettai Harris)، وهو الذي يرى أن الخطاب "وحدة لغوية ينتجها الباحث/المتكلم تتجاوز أبعاد الجملة"⁽⁹⁾، وعليه؛ فهاريس يصف الخطاب وصفاً شكلياً كسلسلة من البيئات اللغوية/الجملة، وذهب إيميل بنفينيست (Émile Benveniste) إلى أن الخطاب هو: "كل تلفظ يفترض متحدثاً وسامعاً، تكون للطرف الأول نية التأثير في الطرف الثاني بشكل من الأشكال"⁽¹⁰⁾، فهو يركز هنا على جانب التلفظ ويرى أن الخطاب لا يتحقق إلا بوجود متحدث يسعى لإقناع المستمع والتأثير فيه، أما جوليا كريستيفا (Julia Kristeva) فقد ذهبت إلى أن الخطاب "يدل على كل لفظ يحتوي داخل بنياته الباحث والمتلقي مع رغبة الأول في التأثير على الآخر"⁽¹¹⁾، فهي تنظر أيضاً إلى الجانب التأثيري والوظيفة الإقناعية للبنيات اللغوية المشكلة للخطاب، وعليه فالخطاب عند السانين هو الوظيفة الديالكتيكية للبنيات اللغوية.

ونجد تزفيتان تودوروف (Tzvetan Todorov) يذهب إلى أن الخطاب "نظير بنيوي لمفهوم الوظيفة في استعمال اللغة"⁽¹²⁾، وبالتالي؛ فالخطاب ما هو إلا "بناء فكري يحمل وجهة نظر تمت صياغته في بناء استدلائي"⁽¹³⁾؛ وهذا ما يحيل إلى أحد المفاهيم التي أوردها ميشيل فوكو بأن الخطاب "إنتاج ذهني يقوم على منطق داخلي، وله ارتباطات مؤسسية"⁽¹⁴⁾، ويتضح لنا من ذلك أن الخطاب قد تحول إلى نمطٍ من الأنماط الاجتماعية المتبعة، والتي تخضع لضوابط وقوانين يجب كشفها وفهمها، ومجمل القول في ذلك هو أن الخطاب في الثقافة الغربية يشير إلى الطريقة التي يتم بها تنظيم وتوجيه الكلام أو النصوص من قبل المتحدث أو الكاتب، أو إلى النظام اللغوي والثقافي الذي يستخدمه الأفراد والجماعات للتواصل وتبادل المعلومات والآراء والمعتقدات، ويمكن أن يشمل المفهوم أيضاً السياق الاجتماعي والثقافي والتاريخي، إضافة إلى الأهداف والغايات والأفكار والتصورات المختلفة.

1-2- مفهوم الخطاب عند فوكو:

يُحْمَلُ ميشيل فوكو مفهوم الخطاب أبعاداً جديدة مخالفة للتحديدات السابقة، وغير مألوفة من خلال طروحاته التي نظر فيها إلى الخطاب على أنه "نظام تعبير فكري متقن ومضبوط"⁽¹⁵⁾، وهذا التعريف يشمل النظام اللغوي والعلاقات التي تضبط البنيات المشكلة له، إضافة إلى الإتيان والضبط بما يتناسب مع الوظيفة والسياق المحيط به، وعمل فوكو على تحديد مفهوم الخطاب بحفر سياقات دلالية واصطلاحية تنظيراً وتطبيقاً، فقد قدم عديد التعريفات من قبيل قوله: "الخطاب مجموعة من الأدلة من حيث هي عبارات، والتي تنتسب إلى نظام التكون نفسه"⁽¹⁶⁾، أو "هو مجموعة من العبارات بوصفها تنتمي إلى التشكيلة الخطابية ذاتها؛ فهو ليس وحدة بلاغية أو صورية قابلة لأن تتكرر إلى ما لانهاية يمكن الوقوف على ظهورها واستعمالها خلال التاريخ مع تفسيره إذا اقتضى الحال، بل هو عبارة عن عدد محصور من العبارات التي نستطيع تحديد شروط وجودها"⁽¹⁷⁾، فالخطاب بذلك عند فوكو يدل على الميدان العام لمجموع المنطوقات أو تلك المجموعات المتميزة من العبارات بوصفها تندرج ضمن تشكيلات خطابية محددة، كما أنه يشكل "شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب ينطوي على الهيمنة"⁽¹⁸⁾. إن اعتماد فوكو مصطلح الخطاب للدلالة على نظام اجتماعي تاريخي ينتج المعرفة والمعنى يكسب الخطاب تأثيراً ملموساً من حيث إنتاجه الممارسات التي تبني بشكل منهجي الهيمنة، وبالتالي؛ يعد الخطاب وسيلة لتنظيم المعرفة التي تهيكّل تشكيل العلاقات الاجتماعية من خلال الفهم الجماعي للمنطق الخطابي وقبول الخطاب كحقيقة اجتماعية، ويتحدد بذلك المنطق الذي ينتجه الخطاب في علاقته الهيكلية بإبستيمي الحقبة التاريخية التي ينشأ فيها الخطاب.

ولقد تناولت أعمال وطروحات فوكو تشكيلية كبيرة من المواضيع صعبت إدراجها في سياق فلسفي أو تاريخي أو نقدي محدد؛ فمصطلح الخطاب مثلاً لم يتشكل في منظومة نظرية محددة، بل يعد أحد العناصر التي اشتغل عليها فوكو ضمن مجموعة من الأنساق المعرفية المتشابكة والمتداخلة، الأمر الذي جعل تعريفات المفكرين والباحثين تتباين بشكل كبير على الرغم من المرونة التي منحها هذا الإطار الفكري للخطاب كمصطلح وكمفهوم، فاعتبار الخطاب مجموعة من العلامات أو الامتدادات النصية غير كافٍ بقدر النظر إلى الخطاب على أنه: "ممارسات تشكل الموضوعات التي تتحدث عنها"⁽¹⁹⁾ فهو "خطاب حول خطابات"⁽²⁰⁾، وبذلك فالخطاب شيء ينتج

شيئا آخر، وشيء يتم إنتاجه حول أشياء أخرى سابقة له، فهو نظام اجتماعي تاريخي ينتج المعرفة والمعنى، بل ويحدد طريقة تفكير الناس، ويراد بهذا أن الخطاب يشكل معرفتهم وهويتهم وهياكلهم الاجتماعية. وقد جادل فوكو أن الخطاب مرتبط بشكل وثيق بالسلطة؛ حيث يمتلك أولئك الذين يسيطرون على الخطاب السائد القدرة على تشكيل القوانين الاجتماعية والقيم. وبالتالي؛ السيطرة على الخطاب كوسيلة لممارسة السلطة وتشكيل الواقع الاجتماعي. فتحديد فوكو مفهوم الخطاب لم يستهدف به البنى اللغوية الناعمة، وإنما كان يستهدف وظائف الخطاب في التاريخ، "إنه لا يريد التوقف عند تفسير الخطاب عند مضامينه، بل يريد الوقوف عند تخوم الشروط التي أتاحت لخطاب معين الوجود، وأقصت في المقابل خطابا آخر"²¹، فيندرج بذلك مفهوم الخطاب عند فوكو في سياق أركيولوجيا المعرفة كممارسة خطابية تشبه الحفريات التي نجدها عند علماء الآثار؛ حيث لا يسعى الخطاب عند فوكو إلى كشف الحقيقة المتوارية خلف المعنى الممنوع؛ وإنما يسعى إلى "إظهار تبعثر لا يمكن إرجاعه إلى منظومة اختلافات واحدة، وتشتت لا يرتبط بمحاور مرجعية مطلقة، ويتعلق الأمر بعملية زحزحة من المركز لا تترك الامتياز لأي مركز على باقي المراكز الأخرى"²²، فهو خطاب يهتم بإقامة الفوارق وإنشائها كموضوعات يحللها ويحدد مفاهيمها، فالخطاب عند فوكو يحتفي بالانفصال ويؤسس لقطيعة مع مبدأ الاتصال الذي سعت العقلانية الأوروبية إلى ترسيخه وجعله النموذج المهيمن الذي تنتظم وفقه مكونات الفكر والحضارة.

ومن شرفة أخرى تحدد جوديث ريفال (Judith Revel) مفهوم الخطاب عند فوكو بأنه: "مجموعة من البيانات التي قد تنتمي إلى مختلف المجالات، والتي تظهر في حقول مختلفة، والتي تشغل حيز الخضوع والرقابة بشكل جماعي، هذه القواعد أو البيانات ليست لسانية أو صورية فقط، ولكنها عملية إنتاجية لكافة المشتركات التاريخية المحددة لنظام الخطاب الخاص بحقبة ما"²³، فالتراكمية هي ما تشكل الأرشيف -بالمعنى الفوكوي للمصطلح- وهو ما يجعل الخطاب يخفي في شقوقه عملية إنتاجية ووظيفة نظامية معيارية، تؤسس لإنتاج المعرفة داخل سياق اجتماعي وتاريخي وتتوارى فيه سلطة هيمنة وعزل وطمس في الآن ذاته، والخطاب -في جوهره- يشير إلى الطريقة التي يتم بها استخدام اللغة لإنتاج المعرفة والسلطة، فهو ليس مجرد مسألة بينات لغوية صرفة، أو نظام من القواعد اللسانية في نصوص منفردة؛ ولكنه نظام متشعب من القواعد والممارسات التي تمتلك سلطة الهيمنة والتحكم في آليات التفكير داخل المجتمع في حقبة تاريخية معينة.

وعلى هذا النحو نجد فوكو يؤكد بأن الخطابات ماهي إلا فعاليات غير بريئة وليست محايدة أو موضوعية، بل دائما ما تتشكل بواسطة علاقات السلطة، وأن أولئك الذين يتمتعون بمواقع السلطة لديهم القدرة على تحديد ما يعتبر معرفة وحقيقة، واستبعاد وتهميش وجهات النظر البديلة²⁴.

فالخطاب -حسب التصور الفوكوي- يدل على تلك المنطوقات التي تعد الوحدة الأولى في بناء تشكيلات خطابية تخرج عن المؤلف، وتتجاوز كل تصور معروف متعلق بالتاريخ والمؤلف والذات والفروع الإستمولوجية، بالتعبير عن القطاعات/الانفصالات بسبب خصوصية النظام المعرفي لكل حقبة زمنية عن الحقب الأخرى، فالخطاب ليس ثابتاً، بل يتطور باستمرار مع تغير العلاقات المؤثرة فيه والمتأثرة به، فيمكن أن تظهر خطابات جديدة تتجاوز الخطابات القائمة بالفعل وتمارس عليها فعل التقويض ما يؤدي إلى تغييرات اجتماعية وثقافية وسياسية، وبذلك يمكن تحديد بعض السمات التي يتميز بها الخطاب عند ميشيل فوكو في النقاط الآتية:

- الإنتاجية: ينتج الخطاب المعرفة ويتحكم في الواقع.

- التاريخية: يتأثر الخطاب بالسياق التاريخي أو الحقبة التاريخية التي يظهر فيها.
- السلطة: يُحمّل الخطاب بالسلطة، ويُستخدم للحفاظ على علاقاتها وتبريرها.
- الإستراتيجية: يُستخدم الخطاب لتحقيق أهداف محددة.
- الدينامية: يتميز الخطاب بالتغير وعدم الثبات والتطور باستمرار.

كذلك أوماً فوكو إلى أنه استخدم مفهوم "الخطاب" للإشارة إلى نظام اجتماعي ينتج المعرفة وفق سياق تاريخي، وأشار إلى أن الخطاب مادي بشكل واضح، ما أنتج ما أسماه "الممارسات التي تشكل بشكل منهجي ما يمكن الحديث عنه"²⁵، فالمعرفة تنتظم في شكل خطابات تبني دستوراً للعلاقات الاجتماعية من خلال توجيه الفهم الجماعي للمنطق الخطابى وقبول الخطاب كحقيقة اجتماعية. فبالنسبة لفوكو: يرتبط الخطاب بالنظام المعرفي للفترة التاريخية التي نشأ فيها، فقد أفرزت طروحات فوكو فتحة إبستمولوجيا جديدة لتحليل الخطاب المعرفي استناداً إلى مبدأ كون السلطة تنتج المعرفة، وأن "المعرفة والسلطة تقتضي كل منهما الآخر مباشرة، فلا علاقة سلطوية دون أن يتشكل حقل معرفي بالارتباط معها، كما لا توجد معرفة لا تفترض وتكون في آن واحد علاقات سلطوية"²⁶، وبذلك يقدم فوكو تصوره للخطاب من منظور علاقته الملتبسة مع السلطة؛ إذ لم يعد الخطاب أحد العناصر التي تستقطب السلطة، بل أصبح هو "بؤرة السلطة نفسها والمدار الذي تدور فيه"²⁷، فقد أخضعت العقلانية الغربية الخطابات للسلطة الرقابية والانضباطية بعد انتشار المعرفة بين الناس، واتسعت دائرة تداولها، وهذا ما جعل المؤسسات تحدد مساحة انتشار الخطابات وذلك راجع -حسب فوكو إلى "الرغبة الراسخة لدى الغرب تجاه الكلام وتجاه إمكانية انطلاق قدراته"²⁸، ما جعل السلطة تصوغ المعرفة وتنتج الخطاب حتى تم اعتبارها "بمثابة شبكة منتجة تمر عبر الجسم الاجتماعي كله أكثر ما هي هيئة سلبية وظيفتها ممارسة القمع"²⁹، وهذا ما جعل فوكو يكرس جهوده في دراسة علاقة الخطاب بالمؤسسات التي تتمظهر كمؤثر لعمليات إنتاج الخطاب؛ إذ نلفيها تسعى إلى تشكيل الخطاب وفق الهيئة أو الصورة التي يحددها العرف السياسي والاجتماعي.

ويكشف لنا الطرح الفوكوي في هذا السياق على أن عملية إنتاج الخطاب هو إنتاج خاضع للمراقبة والانتقاء والتنظيم؛ حيث يقول: "إننا نعرف جيداً أنه ليس لدينا الحق في أن نقول كل شيء، وأننا لا يمكن أن نتحدث عن كل شيء في كل ظرف، ونعرف أخيراً ألا أحد يمكنه أن يتحدث عن أي شيء كان"³⁰، ولا يتوقف فوكو عند هذه المحددات فقط، بل نجده يحفر في أسباب تحول الخطاب من كونه أداة للتعبير إلى كونه موضوع صراع³¹؛ لأن المنظومات العقلانية الغربية قامت بفرض مراقبة على الخطابات للحد من تأثيرها، وبخاصة تلك الخطابات التي تتعامل مع الظواهر الإنسانية، وهي خطابات تتميز "ببحثها المستمر عن تصورات مغايرة للمفاهيم والنظريات والحقائق"³²، ويعد ذلك التحديد الذي تفرضه المواقع المؤسساتية على الخطاب وعلى الحد من قدراته التأثيرية هو ما ولّد حالة من التماسس التي أنتجت الصراع بين الإرادتين؛ إرادة الخطاب، وإرادة السلطة؛ حيث "لم يعد الخطاب هو الطريقة التي يسكن بها الفرد اللغة، ولا هو بمثابة التعبير الذاتي باللغة، حيث كانت اللغة هي التي تتخذ المعنى، إن الخطابات تشيّد من خلال الصراعات"³³، وتعد هذه الصراعات ذات طابع خطابي، فهي تتحقق كممارسة خطابية من خلال تحويل البنيات اللغوية إلى لعبة أدوات لإدارة وتسيير المعركة من أجل الحقيقة.

وهنا نفهم أن "الخطاب" في الفكر الفوكوي مفهوم يتم إنتاجه من خلال تأثيرات السلطة داخل النظام الاجتماعي، تلك السلطة التي تفرض قواعدَ معينة تحدد معايير إضفاء الشرعية على المعرفة والحقيقة داخل النظام الخطابي ككل، فعلى هذا النحو يصف ستيفن جيل (Stephen Gill) الخطاب عند فوكو بأنه "مجموعة من الأفكار والممارسات ذات ظروف وجود معينة، وهي ذات طابع مؤسسي إلى حد ما، ولكن لا يمكن فهمها إلا جزئياً من قبل أولئك الذين تشملهم"³⁴.

ووفق هذا التصور؛ شكل مفهوم الخطاب عند ميشيل فوكو انعطافة كبرى في سياق التحولات المعرفية التي شهدتها الفكر الغربي، لأنه حاول اختراق الهوامش الفكرية والأنظمة الاجتماعية لإعادة تشكيل ملامح الأنساق الإستمولوجية والمفاهيم المرتبطة بالمسكوت عنه والمطموس من قبل السلطة المهيمنة، وذلك ما أسهم في إبراز التصورات الفوكوية لمسألة الخطاب وجعلها تحظى بحفاوة استقبال في الفكر العربي المعاصر، وحسب الزواوي بغورة فإن أغلبية مدارس تحليل الخطاب المعاصرة تتبع مفهوم فوكو للخطاب بصفته مجموعة من المنطوقات/ التعبيرات/ التصريحات الملتزمة -نسبياً- بقواعد معينة، والتي تفرض حدوداً على عملية صنع المعنى⁽³⁵⁾، وهذا التصريح من بغورة يفيد بأن مفهوم الخطاب عند فوكو له وزنه ومركزيته في حقول معرفية عديدة كالأدب والنقد والفلسفة، وإن فهمه واستيعابه يفتح باب فهم جوانب أخرى، فهل استطاع بغورة أن يستوعب الحمولة الفكرية التي يختزها الفهم الفوكوي للخطاب ؟

2- الزواوي بغورة والخطاب الفوكوي: محاولة لتجاوز القلق المفهومي

1-2- نحو فهم الخطاب عند فوكو:

يقدم بغورة في بداية قراءته الخطاب عند ميشيل فوكو عرضاً أركيولوجياً للدراسات السابقة التي رامت فهم مصطلح الخطاب عند فوكو قائلاً إنها "نظرت إلى الخطاب كمرحلة من مراحل تفكير فوكو، ولم تدرسه كمفهوم كلي يشمل كل فلسفته؛ حيث حاولت أن تفهم فوكو من خلال كتاب واحد له، فكانت تركز على أحد الجوانب على حساب الجوانب الأخرى، أو تُجمّد فوكو في مرحلة زمنية محددة فتفقد أعماله الحيوية، ما يشوه العمل الأصلي"⁽³⁶⁾، فهو هنا يُظهر لنا القصور الذي شاب القراءات السابقة التي هدفت إلى فهم ميشيل فوكو وفلسفته، مبرزاً لنا الهدف من دراسته التي سعى فيها إلى محاولة جريئة "لفهم فوكو بشكل غير متجزئ، من خلال إظهار الطابع الكلي والشامل للخطاب في فلسفة ميشيل فوكو؛ لأنه يعد مدخلاً ضرورياً لقراءة فلسفة ميشيل فوكو ومقاربة فلسفية صالحة لمناقشة وتحليل القضايا الفكرية والثقافية"⁽³⁷⁾، وقد تم ذلك من خلال دراسة الخطاب ومنهجه وعلاقته بالسلطة والتاريخ.

وعرج بعد ذلك إلى مسألتَي الترجمة والمصطلح؛ فأبرز مختلف الترجمات العربية للفظة الأجنبية (Discours) التي تمثلت في: المقال، الحديث، النص، الخطاب، وقد انحاز بغورة بوضوح إلى لفظة "الخطاب"؛ لأن هذا المصطلح هو الأكثر حضوراً لدى الباحثين و"قد تنبأه ملتقى ابن رشيق بالجزائر في ماي 1980، الأشيع في الأدبيات العربية أفضل من "الحديث" أو "القول" وأشمل من "المقال"، لذا نفضل استعماله بدلاً من المقال أو غيره من الترجمات"⁽³⁸⁾، وبالتالي؛ فبغورة ينأى بذلك بنفسه عن فوضى الترجمات، مستعيناً بالترجمة الأشهر والأنسب -حسب رأيه- رغم أنه يملك باعاً طويلاً في ترجمة الأعمال الفوكوية والفرنسية عموماً ويؤكد ذلك قوله: "قد ارتفعت منهجياً عن هذا الخلط"⁽³⁹⁾، ونستنتج من هذا أن الزواوي بغورة يحاول إرساء الشمولية في دراسته

بتوحيد المصطلحات بدل الانتقال من ترجمة إلى أخرى، مثلما حدث مع علي حرب الذي اعتمد مصطلح "المقال"، ثم حاد عنه معتمداً "الخطاب" لاحقاً، ويستعرض بغورة مفاهيم الخطاب في اللغة العربية منتقلاً بعد ذلك إلى الأصل الأجنبي للكلمة سواء في الألسنية أو في الفكر الفلسفي الغربي؛ حيث توصل بذلك إلى أن الخطاب هو "ما يظهره الكلام"⁽⁴⁰⁾، ونقف هنا عند قوله: "وإذا كنا قد عرضنا التأصيل العربي لكلمة الخطاب، فإن التحليل العلمي يفرض علينا النظر في الأصل الأجنبي للكلمة"⁽⁴¹⁾، ونفهم من هذا الموقف إلى أن بغورة يرى أن المصطلح غربي، رغم عرضه للتأصيل العربي له من جهة، ورغم أن "الخطاب في الثقافة العربية كان مقارباً لمعنى الخطاب لدى ميشيل فوكو بخاصة في علاقته بالسلطة"⁽⁴²⁾، ومن جانب آخر نرى أن بغورة يميل لهذا الطرح كونه في سياق مناقشة فكر غربي فرنسي يستوجب عليه التسليم بكون اللفظة أجنبية، فيستعرض بغورة أصل ومضمون كلمة (discours) انطلاقاً من اللاتينية واليونانية، منتقلاً إلى الاعتراف بأن مصطلح الخطاب مثار للكثير من اللبس في الألسنية، لاحتلاله مكانة خارج الثنائيات المعروفة: لأن "الألسنيين الأوائل أمثال دي سوسير (Ferdinand de Saussure) وهلمسلف (Helmslef) وجاكبسون (Roman Jakobson) لم يتحدثوا عن الخطاب، وإنما تجد أول من طرح مسألة الخطاب في الدراسات الألسنية هو بيسونس (Buyssens) سنة 1934"⁽⁴³⁾، وكما أن الخطاب مثار للجدل في الألسنية فله أيضاً جانب فلسفي قد استعرضه بغورة بدءاً من سقراط والسفسطائيين حينما كان الخطاب "منحصراً في حدود المعنى، وأصبحت مهمته تكمن في تخليص المعنى ما هو نسبي ومتغير لأن طبيعته منطقية"⁽⁴⁴⁾، وقد توصل بغورة من خلال ذلك إلى أن "الخطاب نظام من العمليات الذهنية القائمة على مجموعة من القواعد المرتبة ترتيباً منطقياً"⁽⁴⁵⁾، وبالتالي؛ فالخطاب لدى بغورة قائم على النظام والمنطق.

وبعد المقدمة التاريخية والاصطلاحية التي ناقش فيها بغورة تحولات مفهوم الخطاب انطلاقاً من الفلسفة القديمة التي أنتجت محاولات للمماثلة بين الخطاب والعقل من خلال "عقلنة الخطاب على قواعد تستمد من داخل الخطاب نفسه أكثر مما تستمد من أصل خرافي أو وضعي"⁽⁴⁶⁾، مروراً إلى عصر النهضة وما أحدثه كتاب ديكارت (مقال في المنهج) من إرساء لهذا التحول و"بداية العقلانية الحديثة"⁽⁴⁷⁾، ووصولاً إلى أعمال ميشيل فوكو التي جسدت "التحول الكبير الذي ارتبط بظهور العلوم الإنسانية باعتبارها خطاب الإنسان"⁽⁴⁸⁾، توصل إلى أن الخطاب مرتبط بالفلسفة والمنطق من حيث كونه "تعبير عن الفكر بواسطة سلسلة من الألفاظ والقضايا التي يرتبط بعضها ببعض"⁽⁴⁹⁾، ونفهم من كل ذلك أن بغورة يرى أن الخطاب أكبر من تلك المفاهيم اللسانية التي قدمت بالنظر إلى كونه سلسلة من الملفوظات؛ حيث نجده يدرك تلك العلاقات والعمليات العقلية المنظمة والمشكلة للخطاب، وهذا غير بعيد عما ذهب إليه ميشيل فوكو في مفهومه للخطاب.

وقد وقف الزواوي بغورة في عرضه النقدي على مفهوم الخطاب عند ميشيل فوكو؛ إذ أورد تعريف فوكو للخطاب مستنتجاً أن الخطاب عند فوكو هو: "مجموعة من المنطوقات، والمنطوقات هي الوحدة الأولية للخطاب، أو هي ذرة الخطاب، وهذا ما يشير إلى مجموعة من العناصر التي تتطلب التحليل، ونعني بذلك: ميدان الخطاب، الممارسة الخطابية، التشكيلة الخطابية"⁽⁵⁰⁾، فالزواوي بغورة من هذا المنظور يرى أن الخطاب عند فوكو له علاقة وطيدة باللغة وبالتشكيلات اللغوية المكوّنة للخطاب، رغم أن النظام المنطوقي عند ميشيل فوكو مفتوح وحامل لإمكانية التجدد، عكس تصور دي سوسير الذي يرى أن "النظام مغلق وأن المنهج يقتضي وصف

اللغة كما هي⁽⁵¹⁾، وينتقل بغورة من ذلك إلى القول إن "المنطوق والتشكيكة الخطابية يخضعان لمنهج واحد في التحليل هو المنهج الأركيولوجي"⁽⁵²⁾، وهذا ما قصده في حديثه عن العناصر التي تتطلب التحليل، فهو يرى أن الوصف الأركيولوجي هو القادر على تحليل الخطابات كحدث تاريخي، والحفر فيها لإدراك القطاعات والانفصالات التي تشكل أساس تحليل الخطاب عند ميشيل فوكو.

2-2- الزواوي بغورة وسؤال المنهج عند فوكو:

انتقل الزواوي بغورة من مناقشة مفهوم الخطاب عند فوكو رغم اعترافه بصعوبة تحديد هذا المفهوم، إلى ما يُلزم النظر فيه، وهو تحليل الخطاب، ويقول في ذلك: "في تعريفنا للخطاب واجهتنا -وفي أكثر من موضع- مشكلة تحليل الخطاب، وذلك لعلاقة المنهج بالخطاب وخصوصيتهما"⁽⁵³⁾، ويؤسس لذلك بغورة بمناقشة قضية حجم المشاكل النظرية التي ظهرت بعد طرح فوكو أعماله التطبيقية خاصة: تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، مولد العيادة، والكلمات والأشياء، ما فرض عليه تأسيس إطار منهجي ونظري لهذه الطروحات التطبيقية، فأطلق منها سماه بالأركيولوجيا، وقد ناقش بغورة انتقال مصطلح الأركيولوجيا من علم الآثار -كفرع علمي يدرس الحضارات القديمة- إلى المضمون المغاير للمصطلح عند فوكو، وقد توصل بغورة إلى أن "موضوع الأركيولوجيا ليس اللغة، وإنما الأرشيف؛ أي الوجود المتراكم للخطابات، فالأركيولوجيا ليست جيولوجيا -أي تحليل للطبقات الأرضية-، ولا جينالوجيا -أي وصف للبدايات والتواريخ، وإنما هي تحليل للخطابات في صيغة أرشيف"⁽⁵⁴⁾، وهذا ما يتماثل مع ما نقله لنا الطاهر وعزيز من جواب ميشيل فوكو على سؤال متعلق بتحديد مفهوم الأركيولوجيا كمفهوم جوهري في فلسفته؛ إذ قال: "لقد استعملتُ هذا اللفظ للدلالة على وصف الوثيقة/الأرشيف، ولم أقصد به اكتشاف بداية أو الكشف عن عظام رميمة"⁽⁵⁵⁾، وهذا يعني أن الأركيولوجيا تعني عند فوكو استنطاق الأرشيف الذي يتضمن خطابا أو خطابات عديدة، وإن هذا الاستنطاق لدى فوكو "لا يتضمن أي محاولة للجري واللهث وراء البدايات... بل يدل على الفكرة الأساسية والمحورية العامة وهي الوصف، فالأركيولوجيا تصف الخطابات كممارسات محددة في عنصر الأرشيف"⁽⁵⁶⁾، وهنا تبرز العلاقة التلازمية بين الخطاب والأركيولوجيا لدى فوكو، والتي استعرضها بغورة متوصلا إلى أن التحليل الأركيولوجي للخطابات "ممارسة خطابية لها قواعدها ومبادئها في وصف الخطابات وتشكيلها وتحولها وشروط ظهورها وتراكمها وتسلسلها، وأشكال وجودها وانبثاقها أو تلاشيها وضياعها؛ بمعنى أن المجال الأساسي للتحليل الأركيولوجي هو التاريخ، على ألا نفهم من التاريخ ما اعتاد المؤرخون والفلاسفة على تسميته بهذا الاسم؛ لأن لفوكو وجهة نظر خاصة"⁽⁵⁷⁾، وإذا كان الخطاب يتشكل من مجموعة منطوقات، فالزواوي بغورة يرى أن تلك المنطوقات هي "الوحدات المركزية للأركيولوجيا"⁽⁵⁸⁾، ونفهم من كل ذلك أن الأرشيف يتكون من تشكيلات خطابية حاملة للمعرفة التاريخية، والأركيولوجيا هي المنهج القادر على استنطاقها، من خلال وصف مآل المعرفة التاريخية، دون البحث في البدايات، وهذا الأخير هو اختصاص الجينالوجيا.

وإذا كان ارتضاء فوكو الأركيولوجيا منهجا لتحليل الخطاب "يغدو قاصرا عن تقديم نظرة شاملة تتناول هذا المنهج بتمفصلاته وآليات اشتغاله"⁽⁵⁹⁾؛ فإن الزواوي بغورة يحاول الغوص في مبادئ هذا المنهج مقدما لنا تصورا خاصا لمبادئ هذا المنهج بالقول: "إن قواعد ومبادئ تحليل الخطاب عند فوكو لا تحلل نظام اللغة ولا القواعد الشكلية للبناء؛ لأنه لا يهتم لا بصدق الخطابات ولا بمعقوليتها، وإنما ينصب التحليل على الأحداث"⁽⁶⁰⁾.

بغورة من خلال هذا القول يصرح بالأسس والمبادئ التي تميز تحليلات فوكو عن غيره، يقول: "إنه لا يتساءل عن التسلسل التاريخي ولا عن معاني النصوص، ولكنه يتساءل عن شروط ظهور الخطابات في التاريخ"⁽⁶¹⁾، ونفهم من ذلك أن فوكو يسعى إلى تحليل الخطاب بوصف هيئته الخاصة والبحث في الخطاب عن شروط وجوده وتشكله، وليس عن قواعد بنائه، وعليه؛ فالأركيولوجيا عند بغورة منهج يعتمد التحليل لوصف الموضوعات، وهذا مطابق تماما لرؤية فوكو باعتباره الوصف أفقا للبحث بقوله: "من هنا يبرز مشروع وصف الأحداث الخطابية كأفق للبحث"⁽⁶²⁾.

إن هذا التمشي المعرفي والمنهجي الذي تتبع من خلاله بغورة مفهوم الخطاب وعلاقته بالأركيولوجيا ينبئ عن إستراتيجية منهجية قديمة؛ إذ إنه استعان بديالكتيك واضحة لفهم الخطاب وعلاقته عند ميشيل فوكو فهما أمكنه من تكوين نظرة شاملة غير متجزئة لهذا المفهوم المركزي في فلسفة فوكو.

2-3- فوكو بين سلطة الخطاب وخطاب السلطة من منظور بغورة:

إن الحديث عن الخطاب بصفة إجمالية يجرنا -حتما- للحديث عن سلطة الخطاب، فالخطاب -كما أسفلنا الذكر- عبارة عن حمولة ثقافية وتاريخية ومعرفية، يقول فوكو: "في الخطاب يحدث أن تتم فصل السلطة والمعرفة، ولهذا السبب ينبغي علينا أن نتصور الخطاب كمجموعة أجزاء وظيفتها التكتيكية غير متماثلة، وكمجموعة عناصر خطابية تستطيع أن تعمل في إستراتيجيات مختلفة، فالخطاب ينقل السلطة وينتجها"⁽⁶³⁾، وهذا يعني أن سلطة الخطاب قادرة على مناهضة السلطة أو إقصائها، وبغورة في هذا السياق يعترف أن "الخطاب سلطة، فمنذ القدم ارتبط الخطاب بالسلطة وارتبطت السلطة بالخطاب"⁽⁶⁴⁾، وبالتالي نقف هنا عند تخوم قراءة بغورة لحدود فهم فوكو لهذا الارتباط من خلال طروحات منطلقها: "هل يُشكل الخطاب في ذاته سلطة؟ أم أن سلطته مقرونة بالذات أو بقوى سياسية معينة؟"⁽⁶⁵⁾، ولمعينة علاقة الخطاب بالسلطة؛ يفترض بغورة أن "مرحلة الخطاب ما هي إلا تطبيق غير مباشر لمفهوم السلطة"⁽⁶⁶⁾، ولمعينة صحة هذه الفرضية استعرض بغورة بعض القراءات كقراءة محمد علي الكبسي، آلان شيريدان (Alan Sheridan)، وهوبرت دريفوس (Hubert Dreyfus)، وبول رابينوف (Paul Rabinow)، متوصلا إلى أن هذه القراءات "فيها جوانب من الصحة، ولكنها قراءات تبقى قاصرة عن إدراك الطابع الكلي لمفهوم الخطاب، والاقتصار على إرجاعه إلى مرحلة معينة من مراحل تكون مفهوم الخطاب في فلسفة فوكو"⁽⁶⁷⁾، وهنا إشارة أخرى من بغورة إلى أن مفهوم الخطاب عند فوكو لا يمكن إدراكه إلا بنظرة شاملة، تناقش الخطاب من كافة جوانبه اللغوية والمعرفية والسياسية؛ لأن "هذه المستويات كلها تعكس مفهوم الخطاب وامتداداته وعلاقاته بحقول وممارسات معرفية وسلطوية"⁽⁶⁸⁾، ونفهم من ذلك أن بغورة يدرك أن الخطاب عند فوكو مرتبط ارتباطا وثيقا بالسلطة، سواء السلطة التي يحملها الخطاب، أو السلطة التي تفرض الخطاب أو تتحكم فيه، وإن القصور الذي استنتجه بغورة عن قراءة الكبسي مرده أن الكبسي أفاد بأن "ما وضعه فوكو ليس الخطاب، بقدر ما هو مضمونه المتمثل في الممارسة السلطوية"⁽⁶⁹⁾، وهذا يحيلنا إلى أن مرحلة الخطاب لدى فوكو مجرد تطبيق مباشر لمفهوم السلطة، وهذه نظرة قاصرة؛ لأنها حصرت الخطاب كمفهوم مركزي في فلسفة فوكو في كونه مجرد تطبيق لمفهوم السلطة؛ إذ إن فوكو جعل مفهوم السلطة مفهوما محايا للمجال الذي تمارس فيه بقوله: "بكلمة سلطة يبدو لي أنه يجب أن يُفهم قبل كل شيء تعدد موازين القوى المحيطة للمجال الذي تمارس فيه، والتشكيلات التي تحوّل هذه الموازين وتعززها وتقلبها عن طريق

مجاهيات ونزاعات متواصلة"⁽⁷⁰⁾، ففوكو من خلال هذا القول يشير إلى أن مفهومي الخطاب والسلطة مفهومان منفصلان، لكنهما متقاربان تجمعهما علاقة تلازمية، أما تأويل آلان شيريدان القائل بأن "فوكو اكتشف في نظام الخطاب سلطة الخطاب"⁽⁷¹⁾، وهذا معناه أن ميشيل فوكو اكتشف سلطة الخطاب في كتابه "نظام الخطاب" الذي صدر سنة 1971، وهذه نظرة قاصرة بالتمعن في كتابات فوكو، فإننا لا يمكن أن "نفصل بين خطاب الجنون وسلطة هذا الخطاب، والسلط المناهضة له"⁽⁷²⁾، وهذا يعني أن ميشيل فوكو قد أدرك سلطة الخطاب منذ كتابه تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي الصادر سنة 1961، وقد وقّع شيريدان في هذا اللبس لكون "فوكو غير طريقته ورؤيته منذ صدور تاريخ الجنون"⁽⁷³⁾، وبالتالي؛ فإن هذا الفصل بين الخطاب وسلطة الخطاب فصل منهجي في إطار نظرة تكاملية تناقش الخطاب من مختلف مستوياته، ويفصل بغورة هذا الجدل ويوضح أن تلك الدراسات كانت مقدمات تجريبية لمفهومي السلطة وسلطة الخطاب بقوله: "إن فوكو قد حلل دائما الخطابات في علاقتها بالسلطة، رغم أن مفهوم السلطة وسلطة الخطاب قد ظهر فعلا بشكل واضح في كتاب نظام الخطاب؛ حيث دُرس داخل حقل إستراتيجيات مختلفة وفي الوضعيات التي يحتلها"⁽⁷⁴⁾.

ومن المنطلقات التي استعان بها بغورة في إطار زحزحة الفهم السابقة لمفهوم الخطاب عند فوكو أو لعلاقته بالسلطة قوله: "لم يهتم الباحثون الذين تناولوا بالدراسة مفهوم الخطاب بالطابع المزدوج، بل اقتصروا على النظر في المسائل المعرفية فقط، تاركين ذلك التساؤل حول علاقة خطاب فوكو بالسلطة"⁽⁷⁵⁾، ونفهم من ذلك أن بغورة يرى بكلية الخطاب عند فوكو، وبعلاقته الحتمية مع السلطة، سواء السلطة كممارسة خطابية أو غير خطابية، وهذا يرجع إلى أن بغورة متأثر بفوكو بشكل كبير جعله يتبنى أقواله وأفكاره ويتولى الدفاع عنها؛ وهذا ما يثبت مرة أخرى اصطفاؤه إلى جانب المدونة التي درسها، والتي توصل من خلال التحليلات التي عاينها خاصة في كتابي: تاريخ الجنون و"المراقبة والمعاقبة"، إلى أن "التحليلات التي قام بها فوكو لا تناقش الخطاب انطلاقا من الذات أو المؤلف أو الفاعل، ولكنها تختبر مختلف الأدوار أو الوظائف التي يقوم بها الخطاب، داخل نظام سلطوي، ينتج عن هذا أن السلطة ليست خارج الخطاب، وهذا لا يعني أن السلطة مصدر أو أصل الخطاب، بل إن السلطة تعمل من خلال الخطاب"⁽⁷⁶⁾، وهذا معناه أن الخطاب عنصر في سلسلة تعمل ضمن آلية السلطة، وأنه "يشكل في مجموعه سلطة قائمة بذاتها وإن كانت منطوقاته تتفاوت من حيث القوة والقدرة"⁽⁷⁷⁾، ونفهم من ذلك أن الممارسة الخطابية تتضمن سلطة مندرجة وسط التشكيلات الخطابية، "فيكفي أن نتكلم وأن نعبر أو أن نستعمل كلمات، حتى نكتشف في هذا الفعل قوة"⁽⁷⁸⁾، وهذه القوة هي قوة وسلطة الخطاب.

وإن تأسيس فوكو "لمفهوم جديد للسلطة وتشكيله خطابا جديدا حول السلطة"⁽⁷⁹⁾، جعله يحظى بهذه الحفاوة الكبيرة في الاستقبال من منطلق دراساته ومقارباته التي اقترحها لدراسة علاقة الخطاب بالممارسات السلطوية.

وبالعودة إلى الفرضية التي طرحها بغورة؛ فإنه توصل إلى صحتها بكون الخطاب يعد تطبيقا غير مباشر لمفهوم السلطة وأن مستويي الخطاب والممارسة متداخلان، فللخطاب سلطة وللسلطة خطابها، وهذا ما يثبت بشكل أكبر علاقة الخطاب بالسلطة، وعلاقة السلطة بالخطاب.

خاتمة:

وعلي سبيل الختم نورد ما توصلنا إليه من نتائج في النقاط التالية:

انخرط بغورة في جملة أعمال ميشيل فوكو تحليلًا وشرحًا ونقدًا، وهي أساسيات اصطفت بغورة إلى جانبها وبني عليها جملة مقولاته التي أطرت وعيه، فطفق يرصد ثقب هذه المقولات التي بنت الذات والفكر الفوكوي، بحثًا عن جغرافيا مصطلح الخطاب، وترسيم حدود المفهوم المختلّف فيها، وهو المصطلح الذي شكل صراعا إبستمولوجيا وصل إلى حدود التشويش المعرفي وإدخال النقد في مطبات وتيارات جردته من كينونته العربية، فاتسم المسار البحثي للزواوي بغورة بالرصانة المنهجية والإحاطة المعرفية بالطروحات الفوكوية، ما جعل دراسته تصطبغ بصبغة شمولية تصلح لأن تكون تأصيلًا ومدخلا لخوض غمار الفكر الفوكوي، فطرح ضرورة مراجعة سياق الهيمنة الغربية على المفاهيم الواردة وتأسيس منطلقات فكرية عربية، وبراديفغات جديدة تتجاوز الاجترار وتؤسس لبناء الفكر والعقل العربي، وسعى إلى فتح باب التساؤل الفلسفي في مفهوم الخطاب عند فوكو بهدف تقويض العقم المصطلحي والمفهومي للخطاب، وخلخلة الوعي التقليدي للترجمات السابقة كالحديث والمقال، وإحداث قطيعة مع التراث، والاتكاء على الطروحات الفوكوية كمطية لنسف وتجاوز ما هو سائد من عقم في الترجمة وفوضى في الفهم، لتأسيس فتوحات معرفية جديدة في الثقافة العربية، فتمكن من إثارة إشكالات مركزية كانت الدراسات السابقة قاصرة عن الوصول إليها كفهم الطابع المزدوج للخطاب، وإدراك الطابع الكلي للمصطلح، وخوض العلاقات المحايثة له، فلم يقتصر في دراسته على النظر في المسائل المعرفية فقط، بل تجاوزها بالنظر في علاقات الخطاب بالسلطة والمنهج، فاتسمت دراسته بمتشّ إبستمولوجي وإستراتيجية منهجية قوية. نأى فيها عن تجزئ علاقات الخطاب والممارسات الخطابية التي تتضمن سلطة مندرجة وسطها؛ حيث توصل من خلال ذلك إلى أن مفهوم الخطاب قد تجاوز المفاهيم اللغوية التي ارتبطت به، إلى كونه نظاما من العمليات الذهنية القائمة على مجموعة من القواعد المرتبة ترتيبا منطقيًا.

إن الحمولات الفكرية التي صاحبت استقبال مصطلح الخطاب عند فوكو من خلال أعمال بغورة أفضت إلى زيادة الوعي النقدي والفلسفي في الفكر العربي، ففتح باب فهم مصطلح الخطاب الذي لا يمكن اختزاله في حقبة أو تجريده عما يجمعه من علاقات تلازمية مع السلطة والمنهج وحتى التاريخ.

الأركيولوجيا عند بغورة رصد لنمط جديد من المعقولية، وترسنة منهجية تسعى إلى توصيف الخطابات كظاهرة/حدث تاريخي تتفاعل مع المحيط الذي تؤدي فيه، وهي ممارسة خطابية لا تقتصر البدايات/لحظة التشكل، ولا تبحث في صدق الخطابات ولا معقوليتها، ولا تنظر إلى نظام اللغة والقواعد الشكلية، ولا تهتم بمظاهر الصعود وتنسّف استمرارية الخطابات ونبذها عن طريق إثبات القطائع والانفصالات والحفر في شروط الإمكان وتحديد الشروط التي أتاحت لتشكيلات خطابية معينة شرعية الوجود والهيمنة في فترة بعينها ومنعت أخرى من الظهور.

الهوامش والإحالات:

1 : عبد القادر شرشار، (2006)، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق، سوريا، ص 9.

2 : جابر عصفور، (1997)، آفاق العصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، القاهرة، ص 64.

- 3 : ينظر: الزواوي بغورة، (2000)، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، دط، القاهرة، مصر، ص 90.
- 4 : عبد الواسع الحميري، (2014)، الخطاب والنص "المفهوم، العلاقة، السلطة"، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان، ص 89.
- 5 : ينظر: سامي عياد حنا وآخرون، (1997)، معجم اللسانيات الحديثة (إنجليزي-عربي)، مكتبة ناشرون، ط7، بيروت، ص 40.
- 6 : سلوى الشرفي، (2010)، تحليل الخطاب، مركز النشر الجامعي، ط1، تونس، ص 13.
- 7 : سعين يقطين، (1989)، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، ص 22.
- 8 : ميشيل مكارثي، (2005)، قضايا علم اللغة التطبيقي، ترجمة: عبد الجواد توفيق محمود، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، مصر، ص ص 128 – 129.
- 9 : فرحان بدري، (2003)، الأسلوبية في النقد العربي الحديث دراسة في تحليل الخطاب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، ص 39.
- 10 : Emile Benveniste, (1966), Problèmes de linguistique générale, Ed Gallimard, p p 241 – 242.
- نقلا عن: محمد البارد، (2000)، إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، منشورات اتحاد كتاب العرب، دط، دمشق، ص 1.
- 11 : فرحان بدري: الأسلوبية في النقد العربي الحديث دراسة في تحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 40.
- 12 : تزفيطان تودوروف: مفهوم الأدب، ترجمة: منذر عياشي، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ع3، 1988، ص 10.
- 13 : محمد عابد الجابري، (1985)، الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، ط2، بيروت، ص 128.
- 14 : ميشيل فوكو: نظام الخطاب، مرجع سابق، ص 9.
- 15 : ميشيل فوكو، (1987)، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، ص 34.
- 16: المرجع نفسه، ص 100.
- 17: المرجع نفسه، ص 108.
- 18: ميجان الرويلي وسعد البازعي، (2002)، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء، المغرب، ص 89.
- 19: ميشيل فوكو: حفريات المعرفة، مرجع سابق، ص 50.
- 20: المرجع نفسه، ص 197.
- 21 : الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، مصدر سابق، ص 8.
- 22: ينظر: ميشيل فوكو: حفريات المعرفة، مرجع سابق، ص 187.
- 23: جوديث ريفال، (2018)، معجم ميشيل فوكو، ترجمة: الزواوي بغورة، دار سؤال للنشر، دار صوفيا، ط1، لبنان، الكويت، ص 51.
- 24: ينظر: محمد بن سباع: تحليل الخطاب عند ميشيل فوكو، مجلة دراسات، جامعة قسنطينة2، قسنطينة، المجلد 05، العدد 01، 2014، ص 137.
- 25 : Alain Sheridan, (1980), Discours, sexualité et pouvoir; initiation à Michel Foucault, pierre Mardaga Editeur, Bruxelles, p140.
- 26: السيد ولد أباه، (1994)، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، دار المنتخب العربي، ط1، بيروت، لبنان، ص 192.
- 27: لونيس بن علي، (2018)، إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية (كيف نؤسس للوعي النقدي؟)، دار ميم للنشر، ط1، الجزائر، ص 100.

- 28 : ميشيل فوكو: نظام الخطاب، مرجع سابق، ص 67.
- 29: المرجع نفسه، ص 64.
- 30: المرجع نفسه، ص 8.
- 31: ينظر: المرجع نفسه، ص 9.
- 32: لونيس بن علي: إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية (كيف نؤسس للوعي النقدي؟)، مرجع سابق، ص 102.
- 33: عبد الواسع الحميري: الخطاب والنص "المفهوم، العلاقة، السلطة"، مرجع سابق، ص 97.
- 34 : Stephen Gill: Globalization, Market Civilization and Disciplinary Neoliberalism, Journal of International Studies, Centre of Sociological Research, University of Szczecin, Poland, N 24, 1995, p401.
- 35 : الشريف مرزوق: مصطلح الخطاب بين التراث العربي والفلسفة الحديثة: تنوع في الدلالات وثراء في المعنى، مجلة النص، جامعة الشهيد العربي بن مهيدي، أم البواقي، المجلد 06، العدد 02، 2020، ص 62.
- 36 : الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، مصدر سابق، ص 87.
- 37 : الزواوي بغورة، (2022)، الخطاب: بحث في بنيته وعلاقته ومزلته في فلسفة ميشيل فوكو، دار الروافد الثقافية وابن النديم للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، ص 26.
- 38 : محمد حافظ ذياب، (1991)، سيد قطب: الخطاب والإيديولوجيا، دار موفم لنشر والتوزيع، دط، الجزائر، ص 07.
- 39 : الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، مصدر سابق، ص 6.
- 40 : المصدر نفسه، ص 91.
- 41 : المصدر نفسه، ص 89.
- 42 : مختار الفجاري: مفهوم الخطاب بين مرجعه الأصلي الغربي وتأصيله في اللغة العربية، مرجع سابق، ص 569.
- 43 : ينظر: الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، مصدر سابق، ص 90.
- 44 : المصدر نفسه، ص 92.
- 45 : المصدر نفسه، ص 92.
- 46 : المصدر نفسه، ص 92.
- 47 : المصدر نفسه، ص 92.
- 48 : المصدر نفسه، ص 92.
- 49 : جميل صليبا، (1987)، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، ج1، دار الكتاب اللبناني، دط، بيروت، ص 204.
- 50 : الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، مصدر سابق، ص 95.
- 51 : فرديناند دي سوسير، (1982)، دروس في الألسنية العامة، ترجمة: محمد القرمادي وآخرون، الدار العربية للكتاب، دط، القاهرة، ص 43.
- 52 : الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، مصدر سابق، ص 102.
- 53 : المصدر نفسه، ص 112.
- 54 : المصدر نفسه، ص 114.
- 55 : ميشيل فوكو: مفهوم الأركيولوجيا، ترجمة: الطاهر وعزيز، مجلة المناظرة، الرباط، المغرب، السنة 02، العدد 04، ماي 1991، ص 128.

- 56 : ميشيل فوكو: حفريات المعرفة، مرجع سابق، ص 126.
- 57: الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، مصدر سابق، ص 114 – 115.
- 58 : المصدر نفسه، ص 114.
- 59 : خالد المجناوي: التشكيلة الخطابية بوصفها مفهوماً حيويًا داخل أركيولوجيا فوكو، مجلة نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية، مركز نماء للبحوث والدراسات، المغرب، العدد 14، 2021، ص 126.
- 60 : الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المصدر سابق، ص 117.
- 61 : المصدر نفسه، ص 117.
- 62 : ميشيل فوكو: حفريات المعرفة، مرجع سابق، ص 26.
- 63 : ينظر: ميشيل فوكو، (1990)، إرادة المعرفة، ترجمة: جورج أبي صالح، مراجعة: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، دط، بيروت، لبنان، ص 108 – 109.
- 64 : الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، مصدر سابق، ص 132.
- 65 : المصدر نفسه، ص 132.
- 66 : المصدر نفسه، ص 132.
- 67 : المصدر نفسه، ص 133.
- 68 : ينظر: المصدر نفسه، ص 133.
- 69 : محمد علي الكبسي، (2008)، ميشيل فوكو، دار الفرق للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الشارقة، ص 44.
- 70 : ميشيل فوكو: إرادة المعرفة، مرجع سابق، ص 101.
- 71 : Alain Sheridan: Discours, sexualité et pouvoir; initiation à Michel Foucault, Ibid, p142.
- ينظر أيضاً: الزواوي بغورة: الخطاب؛ بحث في بنيته وعلاقاته ومنزلته في فلسفة ميشيل فوكو، مصدر سابق، ص 169.
- 72 " ص 133.
- 73 : ينظر: الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، مصدر سابق، ص 148.
- 74 : الزواوي بغورة: الخطاب؛ بحث في بنيته وعلاقاته ومنزلته في فلسفة ميشيل فوكو، مصدر سابق، ص 169.
- 75 : الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، مصدر سابق، ص 133 – 134.
- 76 : المصدر نفسه، ص 247.
- 77 : المصدر نفسه، ص 135.
- 78 : المصدر نفسه، ص 142.
- 79 : ينظر: المصدر نفسه، ص 264.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم، رواية ورش.
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي) (1999)، لسان العرب، ج1، مادة: خطب، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث، ط3، بيروت، لبنان.
- إيمان إسماعيل علي الذواوي، (2017)، مستويات الخطاب؛ دراسة نحوية تطبيقية في الصحيح من الأحاديث القدسي، أطروحة دكتوراه، تخصص: لغة عربية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

- تزفيتان تودوروف: مفهوم الأدب، ترجمة: منذر عياشي، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت، ع3، 1988.
- جابر عصفور، (1997)، آفاق العصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، القاهرة.
- الجاحظ (أبو عثمان غمر بن بحر البصري)، (1998)، البيان والتبيين، ج1، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة.
- جلال الدين المحلي وجمال الدين السيوطي، (2003)، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، ط1، بيروت، لبنان.
- جميل صليبا، (1987)، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، ج1، دار الكتاب اللبناني، دط، بيروت.
- خالد المجناوي: التشكيلة الخطابية بوصفها مفهوما حيويًا داخل أركيولوجيا فوكو، مجلة نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية، مركز نماء للبحوث والدراسات، المغرب، العدد 14، 2021.
- ديان ماكدونيل، (2001)، مقدمة في نظريات الخطاب، ترجمة: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، ط1، القاهرة.
- الزواوي بغورة، (2000)، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، دط، القاهرة، مصر.
- الزواوي بغورة، (2022)، الخطاب؛ بحث في بنيته وعلاقته ومنزلته في فلسفة ميشيل فوكو، دار الروافد الثقافية وابن النديم للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان.
- سامي عياد حنا وآخران، (1997)، معجم اللسانيات الحديثة (إنجليزي-عربي)، مكتبة ناشرون، ط7، بيروت.
- سعين يقطين، (1989)، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت.
- سلوى الشرفي، (2010)، تحليل الخطاب، مركز النشر الجامعي، ط1، تونس.
- السيد ولد أباه، (1994)، التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، دار المنتخب العربي، ط1، بيروت، لبنان.
- الشريف مرزوق: مصطلح الخطاب بين التراث العربي والفلسفة الحديثة؛ تنوع في الدلالات وثراء في المعنى، مجلة النص، جامعة الشهيد العربي بن مهيدي، أم البواقي، المجلد 06، العدد 02، 2020.
- صلاح فضل، (1996)، بلاغة الخطاب وعلم النص، مكتبة لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، ط1، لبنان.
- عبد القادر شرشار، (2006)، تحليل الخطاب الأدبي وقضايا النص، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق، سوريا.
- عبد الله إبراهيم، (1999)، الثقافة العربية الحديثة والمرجعيات المستعارة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، بيروت.
- عبد الواسع الحميري، (2014)، الخطاب والنص "المفهوم، العلاقة، السلطة"، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان.
- فرحان بدري، (2003)، الأسلوبية في النقد العربي الحديث دراسة في تحليل الخطاب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت.
- فرديناند دي سوسير، (1982)، دروس في الألسنية العامة، ترجمة: محمد القرمادي وآخران، الدار العربية للكتاب، دط، القاهرة.

- لونيس بن علي، (2018)، إدوارد سعيد من نقد خطاب الاستشراق إلى نقد الرواية الكولونيالية (كيف نؤسس للوعي النقدي؟)، دار ميم للنشر، ط1، الجزائر.
- محمد الباردي، (2000)، إنشائية الخطاب في الرواية العربي الحديثة، منشورات اتحاد كتاب العرب، دط، دمشق.
- محمد بن سباع: تحليل الخطاب عند ميشيل فوكو، مجلة دراسات، جامعة قسنطينة2، قسنطينة، المجلد 05، العدد 01، 2014.
- محمد حافظ ذياب، (1991)، سيد قطب؛ الخطاب والإيديولوجيا، دار موفم للنشر والتوزيع، دط، الجزائر.
- محمد عابد الجابري، (1985)، الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، ط2، بيروت.
- محمد علي الكبسي، (2008)، ميشيل فوكو، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، الشارقة.
- محمد فخر الدين الرازي، (1983)، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، ج 26، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت.
- مختار الفجاري: مفهوم الخطاب بين مرجعه الأصلي الغربي وتأصيله في اللغة العربية، مجلة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طيبة، المملكة العربية السعودية، السنة 02، العدد 03، 2013.
- مهي محمود العتوم، (2004)، تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث؛ دراسة مقارنة في النظرية المنهج، أطروحة دكتوراه، تخصص: اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، الأردن.
- ميشيل فوكو: مفهوم الأركيولوجيا، ترجمة: الطاهر وعزيز، مجلة المناظرة، الرباط، المغرب، السنة 02، العدد 04، ماي 1991.
- ميشيل فوكو، (1987)، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، ط2، الدار البيضاء.
- ميشيل فوكو، (1990)، إرادة المعرفة، ترجمة: جورج أبي صالح، مراجعة: مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، دط، بيروت، لبنان.
- ميشيل فوكو، (دت)، نظام الخطاب، ترجمة: محمد سيلا، دار التنوير، دط، بيروت.
- ميشيل مكارثي، (2005)، قضايا علم اللغة التطبيقي، ترجمة: عبد الجواد توفيق محمود، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، مصر.
- وليد منير، (1997)، النص القرآن من الجملة إلى العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية.
- Alain Sheridan, (1980), Discours, sexualité et pouvoir; initiation à Michel Foucault, pierre Mardaga Editeur, Bruxelles.
- Stephen Gill: Globalization, Market Civilization and Disciplinary Neoliberalism, Journal of International Studies, Centre of Sociological Research, University of Szczecin, Poland, N 24, 1995.